ثقافة مهجورة

● تعليم دميم الوجه :

وأعنى به التعليم الدينى ، ذلك النوع من الثقافة التى تحيا على هامش المجتمع ، وتفوح منها رائحة البِلَى ، ويضطرب أصحابها فى عالَم يتنكر لهم ويضيق بمرآهم ...

إنَّ التعليم الدينى فى بلاد الإسلام وصل إلى قعر الهاوية التى هيأها له الاستعمار ودفعه فى طريقها من عشرات السنين .

فهو ينحدر إليها كما تنحدر الشيخوخة إلى الموت .

لا تغنى عنها مقومات ولا منشطات .

وها هو ذا قد ركدت ريحه وسكنت حركته وعطبت ثمرته ....

ولستُ أدرى ما سيكون عليه غدنا - والحالة هذه .

هناك خرِّيجون من « الأزهر » يقومون بتدريس اللغة العربية فى المراحل الأولى والثانوية ، ويُكَلَّفون كذلك بتدريس ألوان باهتة من تعاليم الإسلام .

غير أنَّ هولاء المدرسين وتلامذتهم لا يفيدون الإسلام قليلاً ولا كثيراً .

ولا يفيدون هم أنفسهم شيئاً من الإسلام ....

وكذلك الحال بالنسبة إلى اللغة العربية وآدابها وقواعدها ..

إنَّ ألسنة المتعلمين تكاد تجيد كل لغة إلا العربية !!!

والحقيقة أنَّ هذه المحاولات دهان سطحى فوق عِلل غائرة .

ولا بد لعمل شىء جديد كل الجدة إذا أُريد بقاء الإسلام بين أتباعه ، وامتداد تعاليمه مع الأجيال النامية ..

* * *

سألنى صديق : أنت عالم تخرجت فى الجامع الأزهر من سبع عشرة سنة ، ولك غيرة بادية على دينك ، فهل دفعتَ بأولادك إلى الأزهر ليؤدوا الرسالة التى تقوم بها ؟

قلت له : لا ...

إننى يا صديقى أُجَنِّب ذُرِّيتى المآسى التى لحقت بزملائى ، وكادت تلفنى فى أكفانها لولا أنَّ اللّه لطف بى ...

لقد دخلتُ الأزهر وعمرى عشر سنين ، وقضيتُ فيه خمسة عشر عاماً ، لم أكن خلالها طالب علم يتفرغ لتلقى دروسه ، بل كنت مقاتلاً فى حرب دائمة مع المجتمع والدولة !!!!

كانت الدنيا متجهمة لى ، الدنيا الرسمية والدنيا الشعبية ..

فأما الدنيا الرسمية .. فإنَّ قوانين الدولة كانت تحظر على أمثالى الالتحاق بالوظائف العامة ، وتجعل المناصب كُبراها وصُغراها لأبناء التعليم المدنى .

وكان مفروضاً أنَّ جميع الوزارات تزدحم بغيرنا وتوصد أبوابها فى وجوهنا ، ويستحيل أن يفلت إلى داخلها أحد منا .

والذى بقى لنا بعد ذلك عدة وظائف تافهة ، لا يكفل راتبها حياة دابة .

وأذكر أنه على عهد « صدقى باشا » عُيِّن نفر من علماء الأزهر المتخصصين - الذين قضوا فى الدراسة مُدداً لا تقل إحداها عن خمسة عشر عاماً - عُيِّن الواحد منهم بثلاثة جنيهات فقط .

وذلك مرتب دون ما يُقرَّر يومئذ لحامل الشهادة الابتدائية ..!!!

إنَّ الاستعمار ، السافر منه والمقَّنع ، دفع بالأزهر ورجاله إلى مستقبل كالح .

فإذا تجاوزت الناحية الرسمية إلى الناحية الشعبية ، فإنَّ الفجوة التى حُفِرت بيننا وبين الناس كانت عميقة - ولا تسلنى مَن حفرها ؟

كان كثير من العامة يتعرض لنا بألفاظ السخرية والتهكم .

ويرى التندر بملابسنا ، والتفكه بعمائمنا ... مسلاةً مستباحة ...

ولما كان أغلب القادرين الواجدين يرفض تعريض أبنائه لمستقبل أسود .

ويُفضِّل الاتجاه بهم إلى التعليم المدنى ، فإنَّ التعليم الدينى أصبح متنجع الطبقات الفقيرة .

ومصر بلد حكمه الفراعنة قديماً ، وقامت للإقطاع فيه دولة رأينا سادتها بأعيننا ، وفى هذا البلد يُحَقَّر الفقير ، ويُذَلّ ، وتقتحمه الأنظار باستهانة .

ولما كان الأزهرى يُمثِّل الذين ويُمثِّل الفقر فهو يجمع بين حالتين مزريتين تضعان أمامه السدود وتُثقلان أطرافه بأنواع القيود ... !!!

ومن ثَمَّ تكوَّنت فى مصر طائفة غريبة على الحياة العامة .

قد يكون فى بعضها ذكاء خارق رائق ، أو نفع عميم أو جهد عظيم ، ومع ذلك فيكفى أن تكون أزهرية لتقابَل بهز الكتفين ...

وزاد الطين بَلّة أنَّ الدولة انصرفت عن العناية بهذا المسجد الكبير .

ولم تبال أن تتقلص منه عناصر الحياة وأن تسود فيه عناصر الركود والضعف .

فماذا ترى الآن ؟

إننى أذهب إلى مبانى الكليات الأزهرية وقاعة المحاضرات الكبرى ، فأجد عليها جميعاً غبرة ترهقها قَترة .

برج الساعة خال لا ساعة فيه !

القاعة مقفرة لا أنيس بها ولا صوت !

زجاج النوافذ محطم وقد وُضِعَت فى فراغه أوراق الكرتون !

الأطلال القديمة تسفى الغبار .

والأبنية الجديدة يبول عليها الرعاع !!

وجبل المقطم يُلقى ظلال الخيبة على المكان الهامد !

ولقد كان من ثلاثين سنة مقابر للموتى ، وهو الآن مقابر لنفر من الشيوخ النائمين والشباب الهائمين ...

إنَّ أبى - رحمه الله - كان رجلاً طيب القلب ، كبير الروح .

وقد نذرنى لخدمة الإسلام ، ووقف حياته ونشاطه على إدخالى فى الأزهر ، وثابر - وهو المكافح الجلد - حتى نلتُ إجازتى منه .

ورآنى وأنا أبدأ حياتى بمرتب ستة جنيهات .

فقد كان الحظ إلى جانبى فى هذه السنوات العجاف ، وإلا ما استطعت أن أحصل على هذا المبلغ مع أنَّ مئات العلماء كانوا يتضورون ....

وهناك ألوف أمثالى أُدخلوا الأزهر بهذه النيَّة الصالحة .

وكان من السهل توجيههم الوجهة التى يُسهمون فيها بجهد رائع فى خدمة هذه الأمة ورِفعة شأنها .

بَيْدَ أنَّ سياسة الاستعمار القديمة وأسلوب الرجال الذين تربوا فى جامعاته ومعاهده جعل من الأزهريين قوة مشلولة ، ولا أريد أن أقول : طاقة منبوذة ..

إنَّ تحقير الأزهريين لأنهم أبناء الفلاحين الفقراء جريمة قذرة .

وربما يرتكبها إلى يوم الناس هذا رجال لو نبشنا التراب عن أُصولهم لاسودت وجوههم ....

وأغنياء مصر - بل أغنياء الشرق كله - آخر أهل الأرض فخراً بثرواتهم ، وتنكراً لغيرهم .

وتحقير الأزهريين لأنهم يمثلون الإسلام جريمة قذرة كذلك يرتكبها إلى يوم الناس هذا رجال مسخ الاحتلال البريطانى قلوبهم وعقولهم ، وأمات حياءهم وأحيا بذاءتهم .

رجال أعرف أنهم ينحنون لذوى العمائم السود ، ويتجرأون على أبناء دينهم فحسب .

ذلك أثر التربية التى أخذهم به الغالب المحتل من سبعين سنة .

والجراءة على الإسلام هى التى تجعل الواحد من هؤلاء يمسح جبهته بنعل بغى ، ويكرع من الخمر حتى يمسح الأرض بلحيته الملوثة .

فإذا رأى شيخاً مسلماً نهره بكبرياء وعنجهية ...!

وأعلم أنَّ من المحسوبين على الدين ناساً أجلافاً ينقصهم زاد كثير من المعرفة الحسنة ، والسيرة اللبقة .

وأعلم أنَّ من المحسوبين على الدين تجاراً يصطادون المال ويدخرونه لعاجلتهم وهم ذاهلون عن آجلتهم .

وأعلم أنَّ من المحسوبين على الدين أقواماً لا ترشحهم معادنهم العاطفية ولا الفكرية لأداء رسالته وحمل أمانته .

غير أنَّ ذلك كله لا يتأدى بأحد إلى إصدار حكم بالإعدام البطىء على الإسلام وعلى تعليم الإسلام وعلى المعهد الذى أُقيم لذلك الغرض .

إنَّ الظروف التى تعرَّض لها « الأزهر » لو تعرَّضت لها جامعة أخرى لاصطفقت أبوابها من زمن بعيد ....

ولو أنَّ خريجى الآداب والحقوق تعرَّضوا لألوان الكساد المادى والأدبى الذى تعرَّض لها الأزهريون لأُغلقت كلياتهم ولأدركهم من الهوان ما يواريهم الثرى ...

إنَّ الظروف التى تحيا فيها هذه الطائفة ، والتجارب التى تمر بها ، تجعلك تردد المثل المعروف : « لا تسأل عن الهالك كيف هلك ! ولكن اسأل عن الناجى كيف نجا » ....

* * *

ولكى تخلص الأمة من ذلكم الازدواج فى التعليم ، والانقسام فى المشاعر لا بد أن نحدد - بصراحة - موقفنا من الإسلام .

ولسنا نحن الذين نحدد هذا الموقف ، بل رجال وزارة التربية والتعليم ..

هل المراد تنشئة الأولاد على تعاليم الإسلام أم لا ؟

وهذه التنشئة لا تعنى حشو أذهانهم بجملة من الدروس الشاحبة ، ولا حشد أبدانهم لحضور حصص مفروضة ...

بل المراد خلق بيئة مكتملة العناصر تتعاون فيها أنواع النشاط العلمى والفنى والرياضى لتكوين جيل متدين .

المراد أن يستقر فى أذهان المفتشين والنُظّار والمدرسين وسائر الموظفين أنّ غرس تعاليم الإسلام وآدابه واجب فى أوقات العمل والفراغ ، فى الفصول وفى الرحلات ، فى العلاقات الخاصة والعامة .

وبذلك تكون للمدرسة رسالة موصولة بأهداف المجتمع والدولة .

وتكون اليقظات النفسية والعقلية للكبار والصغار متساوقة نحو مُثُل عليا مقرّرة ، مفروغ ابتداءً من تقديسها ، لا يُسمح لأحد أبداً أن ينال منها أو يتجرأ عليها !!!

إذا حددنا موقفنا الإسلامى فى التعليم فإنّ مستقبل الأزهر يكون قد بُتّ فيه ، إما بإغلاقه ، وإما بكفالة وضع كريم له .

والواقع أنّ نفراً من المسئولين عن التعليم يتأرجحون بين ما تعلموه من أمريكا وإنجلترا ... وبين ما فرضته طبيعة الحياة أخيراً فى البلاد العربية والإسلامية .

هم تعلّموا أنّ الدين يجب إبعاده عن المدرسة .

وهم تعلّموا أنّ سلوك الشباب يجب إطلاقه ليبرأ من الكبت ، والعُقَد النفسية .

وهم تعلّموا أنّ الدين يخالف العقل ، أنّ أحكامه تجافى الطبيعة . وأنّ إيحاءه يُفسد العواطف والأفكار .

هم تعلّموا هذا فى الكراسات التى حبسهم الاستعمار عليها ولم يسمح لعيونهم أن تعدوها إلى غيرها ...

كانت النتيجة أن جاءوا إلى أوطانهم بأفئدة موغَرة على الإسلام ، نافرة من أهله شديدة الحرص على مجافاتهم ...

والغريب أنّ الهجوم الذى رأوه على الدين كان موجهاً فى بلاده ضد المسيحية فقط فأما نحن فنلقناه إلى بلادنا لنخنق به الإسلام .

وأما المسيحيون - فى أغلب مدارسهم الوطنية وفى جميع المدارس التى افتتحوها فى بلادنا - فإنهم احتقروا هذا الهجوم ، وجعلوا الروح الدينية والصلوات الكنسية جزءاً لا يتجزأ من برامجهم الدارسية !!...

أرأيتَ هذا التناقض . ؟

أرأيتَ الخيبة المُرّة التى أصابتنا ؟

أرأيتَ كيف يُوكَس الإسلام وحده وكيف ينبت أبناؤه وبناته غرباء عنه أو خفاف الزاد منه ، أو قليلى الحنو عليه ؟

ومن بضع سنين اضطرت وزارة المعارف إلى توظيف عدد غفير من علماء الأزهر تمشياً مع سياسة التوسع فى التعليم .

وهؤلاء العلماء الموظفون لم يُطلبوا للقيام ببرنامج واسع من التربية الدينية .

لا وزارة المعارف أرادت هذا ، ولا هم يصلحون لذاك .

وإنما طُلبوا ليكونوا مدرسى لغة عربية ..

بَيْدَ أنّ هؤلاء العلماء عاشوا فى وزارة المعارف كما يعيش الملوّنون فى الولايات المتحدة !

إنَّ ماضيهم الأزهرى لا يُغتفر لهم !

والحق أنَّ الأزهر ترك فى نفوسهم ومسالكهم آثاراً لا تتواءم أبداً مع روح التحرر التى يفهمها رجال وزارة المعارف .

روح الانفكاك من الإسلام والغض من قداسته ، والنظر إلى الاختلاط الجنسى والواجبات الدينية العامة نظرة كلها تساهل و ... إرخاص !

إنَّ آراء « فرويد » فى علم النفس لها قداسة ما تُعرف لوحى اللّه !

ولما كان جمود الأزهريين بإزاء هذه المسائل مثيراً ، فقد صدر قرار [1] بدحرجة بضعة ألوف منهم إلى منزلة دراسية أدنى مما يستحقون ، بحجة النقص فى كفايتهم الفنية .

وقد انبرى الدكتور « محمد البهى » لفضح هذا التصرف فى محاضرة كبيرة ، كشف فيها النقاب عن التيارات الأمريكية الهدامة فى بلادنا وفى ثقافتنا .

ولا بد للرجوع إلى هذه المحاضرة للوقوف على جلية الأمر .

ونحن نقتطف منها هذه الأجزاء لاتصالها بموضوعنا .

قال - بعد أن سرد هجوم « فرويد » على الدين - : ومع أنه يهودى ، فهو لا يقصد من الدين هنا إلا المسيحية ، لأنه عَدَّد فى هذا الكتاب النقائص التى أخذها فلاسفة القرن التاسع عشر على الكثلكة المسيحية .

قال فرويد : « وإنما ترجع استقامة الشعور فى التصرف ، إلى الخلاص من الكبت الجنسى نفسه ، هذا الخلاص الذى يؤدى « إلى روح الزمالة » ثم الانصراف إلى العمل المثمر » !

---

(١) مشروع مستوى الكفاية الفنية فى التعليم ، وسيأتى تفصيله ، والمقصود به قصر بضعة ألوف من علماء الأزهر على المراحل الدنيا فى المدارس العامة .

وفرويد فى نظرته إلى الغريزة الجنسية على هذا النحو ، يجعلها أساس الحياة الإنسانية ، من الطفولة إلى الرُشد .

وهذه النظرية عاشت فترة فى القرن التاسع عشر ، وسادت أيام أن ساد الفكر المادى فى الغرب .

وتسود يوم يدعو الكُتّاب إلى المادية العلمية ، والوقوف عند حد الحواس وإنكار المعنويات ، وفى مقدمتها إنكار الله .

ولم تسلم هذه النظرية لفرويد إذ قاومها نفر آخر من علماء النفس من معاصريه أمثال « ألفريد آدلر » - ولد سنة ١٨٧٠ - الذى تتلمذ على فرويد نفسه . فـ « آدلر » جعل غريزة « حب البقاء » المصدر الأصيل الذى تنشأ عنه كل التصرفات الإنسانية بدلاً من الغريزة الجنسية .

ورمى أستاذه بالمبالغة فى شأن الغريزة ، وبالدعوة عن طريقها إلى إهدار كل القيم الإنسانية ، والوقوف بالإنسان عند الحد الحيوانى .

وبقيام المدرسة المشتركة ، وهى الـ « Public School » ، فى أمريكا انحطت القيم الأخلاقية فى الحياة الأمريكية التعليمية ، والحياة العامة .

وربما كان السبب فى ذلك أنه لم يعد هناك كبت للغريزة الجنسية .

ولكن ليست « روح الزمالة » ،على أى حال - التى نشدها « فرويد » من الاختلاط فى التعليم قبل مرحلة الجامعة - هى التى حلّت أزمة الغريزة الجنسية بين المراهقين والمراهقات .

أما مشروع « مستوى الكفاية الفنية » وتطبيقه فى دائرة مدرسى اللغة العربية والدين ، من المتخرجين فى كليتى أُصول الدين ، والشريعة ، من كليات الجامع الأزهر - فهو مشروع يُعيد إلى الأذهان مشروع « دانلوب » فى التوجيه الفنى والتربوى لمدارس الحكومة المصرية ، الذى قُصِدَ منه يومئذ الغض من قيمة الأزهر والمتخرجين فيه .

إنَّ المتخرج من كلية الشريعة ، أو كلية أُصول الدين ، الذى تولى التدريس فى مرحلة التعليم الابتدائى ، ثم نُقِل من هذه المرحلة إلى مرحلة الإعدادى ، ثم نُقِل من هذه إلى مرحلة الثانوى ، إذا أُعيد من جديد إلى المرحلة السابقة على المرحلة التى يقوم بالتدريس فيها الآن معناه : عدم أهليته للقيام بمنهاج اللغة العربية والدين فى مرحلة الثانوى .

ومعناه : عدم اعتبار التجارب السابقة التى اكتسبها فى تدريس اللغة العربية والدين ، فى مرحلتى الابتدائى والإعدادى ، سواء من الوجهة الموضوعية ، أو الوجهة التربوية والمنهجية .

معناه : إهدار القيمة العملية لقانون التطور فى الحياة بالنسبة للأزهرى .

ثم اشتراط : أنه لا يُنقل لمرحلة الثانوى من جديد إلا بعد النجاح فى امتحان يساوى الامتحان النهائى لقسم اللغة العربية فى كلية الآداب أو لطلبة كلية دار العلوم .

معناه : أنه مؤهَّل الآن بالثانوية فحسب ، وأنَّ حصوله على الشهادة العالية من كلية أُصول الدين ، أو من كلية الشريعة ، أمر ملغى اعتباره .

وإذن .. أربع سنوات قضاها طالب كليتى أُصول الدين ، والشريعة ، يدرس فيها المواد الخاصة بكل كلية ، وهى مواد إسلامية عربية ، ومن بينها تفسير القرآن الكريم - وهو من جانب يُعتبر تطبيقاً عملياً لأسلوب اللغة العربية وقواعدها - بالإضافة إلى سنتين قضاهما فى تخصص التدريس ، يدرس فيها مواد التربية ، ومنهاجاً موضوعياً للغة العربية بفروعها المختلفة بالإضافة إلى ست سنوات أخرى على الأقل قضاها فى ممارسة تعليم هذه اللغة ، فى مراحل التعليم الثلاث : الابتدائى والإعدادى والثانوى .

تساوى فى نظر أتباع « ديوى » فى مصر صفراً على اليسار فى حياة المتخرج فى هاتين الكليتين ، الذى اشتغل بالتعليم الرسمى ، حتى مرحلة الثانوى .

هذا المعلّم ، طبقاً لمشروع « مستوى الكفاية الفنية » الذى خرج به أتباع « ديوى » على الرأى العام المصرى فى ٢٨ سبتمبر الماضى ، عاد من جديد إلى وضع حامل الثانوية الأزهرية الفج ، الذى لم يكسب خبرة فنية ، ولم يتابع فى التعليم العالى دراسة للثقافة الإسلامية العربية فى مدة الكلية ، ولا دراسة تربوية فنية وموضوعية ، فى تخصص التدريس .

وبقيت التسع سنوات التى قضاها هذا المعلّم فى مرحلتى الابتدائى والثانوى فى التعليم الأزهرى هى هى لم تتغير ، بما أضافه من أربع سنوات فى الكلية وسنتين فى تخصص التدريس ، وست سنوات فى التعليم المدرسى بوزارة التربية والتعليم .

وأصبح حاصل الجمع العددى لتسع سنوات ، حصل فى نهايتها على الشهادة الثانوية ، ولأربع فى الكلية ، ولاثنتين فى تخصص التدريس ، ولست فى مدارس وزارة التربية يساوى تسعاً فقط !!

ثم عندما يريد النقل منذ الآن إلى الثانوى ، عليه أن يجتاز الامتحان النهائى لقسم اللغة العربية فى كلية الآداب ، ولكلية دار العلوم .

ما هى برامج اللغة العربية الآن فى كلية الآداب ، وفى كلية دار العلوم لطلّاب وطالبات التوجيهية فيها ؟

إنها برامج القسم الثانوى لطالب الأزهر فى اللغة العربية .

ومعنى امتحانه مرة أُخرى فى المقرَّر النهائى لطلّاب قسم اللغة العربية فى كلية الآداب ، أو لطلّاب دار العلوم ، إلغاء اعتبار شهادة الثانوية التى حصل عليها من الأزهر .

وعندئذ هو مؤهَّل فقط فى نظر أتباع « ديوى » فى وزارة التربية والتعليم بالشهادة الابتدائية وحدها ! .

ذلك هو منطقهم ، ونتائج هذا المنطق : إهدار قيمة الأزهر بإهدار قيمة المتخرجين فيه .

وذلك ما أراده الاستعمار الإنجليزى ، يوم تولى السياسة التعليمية فى مصر على يد « دنلوب » .

يكتب ديوان الموظفين تقريره عن « مستوى خريجى الجامعات المصرية » لعام (١٩٥٧ - ١٩٥٨) وتطلع به الصحف المصرية على الرأى العام العربى فى ٢٠ سبتمبر الماضى . أى قبل خروج مشروع « مستوى الكفاية الفنية فى التعليم » فى الصحف بأسبوع ، وعنوان هذا التقرير « جهل خريجى الجامعات ».

ولخصت جريدة الأخبار الجديدة التقرير فيما يلى :

ديوان الموظفين يستغيث من جهل خريجى الجامعات : أعلن الديوان أنَّ ٦٦٪ من الخريجين ، نالوا صفراً فى الامتحانات التى أجراها أساتذة الجامعات للديوان .

قال : إنَّ الأطباء عاجزون عن التعبير ، وعباراتهم ضعيفة ، ومعلوماتهم العامة لا وجود لها . !

وقال : إنَّ الكيميائيين لا يعتمدون على أنفسهم ، فى البحث والاطلاع ، وأنَّ معوماتهم جامدة !

أما المهندسون .. فمستواهم الثقافى ضعيف جداً وهم لا يقرأون الصحف ولا يحاولون تجديد معلوماتهم الفنية بعد التخرج ، ولا يحاولون الاستفادة من الدراسة فى النواحى التطبيقية .

ويأتى بعد ذلك خريجو كليات التجارة ، وهم جهلة تماماً بالمعلومات العامة .

ثم مدرسو اللغة العربية (لم يقل الأزهريين من كليتى الشريعة وأصول الدين بل مدرسى اللغة العربية ، وهو كما يشمل هؤلاء ، يشمل المتخرجين فى قسم اللغة العربية فى كليات الآداب ، وكلية دار العلوم ، وكلية اللغة العربية بالأزهر) وهم يخطئون فى النحو . ثم يأتى مدرسو الفلسفة (وطبعاً هؤلاء من كليات الآداب) ، الذين لا يعرفون شيئاً عن الربط بين الفلسفة والحياة العلمية العامة.

أما الزراعيون .. فهم جهلة بمعلومات الجغرافيا البسيطة .. إلخ !

يكتب ديوان الموظفين هذا التقرير ، وتنشره الصحف فى ٢ سبتمبر سنة ١٩٥٧ ، ولا شك أنَّ وزارة التربية والتعليم بالاشتراك مع الجامعات هى جهة الاختصاص فى بحث « مستوى التعليم » .

فلا بد أنها تلقت هذا التقرير قبل نشره فى الصحف .

وبعد أسبوع من نشره فى الصحف يقدَّم إلينا أتباع « ديوى » فى وزارة التربية مشروع « مستوى الكفاية الفنية فى التعليم » .

ولقد لخصته الأهرام الصادرة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٥٧ فيما يلى :

« تقرر ألا يظل فى التعليم الثانوى من حملة العالمية فى كليتى الشريعة وأصول الدين مع تخصص التدريس إلا العناصر الممتازة ، التى حصلت على جيد جداً ، فى عامين متتاليين يسبقهما تقدير جيد (ولعله لا يكون هناك ممتاز من بينهم ، فى نظر واضعى التقارير عنهم أصلاً) ويُنقل الباقون إلى المرحلة الإعدادية . ولا تكون الترقية من بينهم إلى المرحلة الثانوية إلا باجتياز امتحان فى اللغة العربية فى مستوى امتحان كلية الآداب قسم اللغة العربية ، أو كلية دار العلوم » .

أما امتحان كلية اللغة العربية الأزهرية ، فملغى اعتباره فى نظرهم .

الأزهر وحده ، وأبناء الأزهر وحدهم ، يُنخلون من بين أصحاب الشهادات العليا فى مصر الذين جاءت طوائفهم فى تقرير ديوان الموظفين السابق .

* * *

وأنا أعلم من تجاربى الخاصة ومن تقارير ديوان الموظفين لعدة سنين ، ومن ملاحظة الاختبارات التى تُعقد بين الحين والحين لملء الوظائف الشاغرة أنَّ مستوى المتخرجين فى الجامع الأزهر وغيره من الجامعات المدنية ضعيف إلى حد محزن .

ومعنى هذا أنَّ طعن رجال المعارف فى الأزهريين صحيح !

ولكنهم لا يُصدَّقون إذا قالوا : إنَّ هذا هو السبب فى دحرجتهم إلى درجات أدنى .

لو كان الأزهريون أقل كفاية من مستواهم الحالى . وأسرع انقياداً إلى العابثين من حُماة الرقص التوقيعى ، ودعاة المدرسة المشتركة - لأمسوا موضع الرضا ، ولأغضى عن ضعفهم الفنى كما تنوسى ضعف غيرهم من أبناء المعاهد الأخرى .

* * *

يؤسفنى أن أصارح بأنَّ هناك غُبناً متعمَداً يقع على رؤوس الأزهريين .

إنَّ مستر « نهرو » يحاول إدخال « المنبوذين » فى المجتمع الهندى .

أما هنا .. فالمحاولات دائبة لإخراج الأزهريين من المجتمع ....

الويل لأزهرى يقع فى خطأ.

إنَّ الصحف تجعل من الحَبَّة قُبَّة وتتناول قضيته لتحيل الوهم حقيقة .

ولا يزال الحزن يخامر قلبى لنفر من العلماء تناولت الجرائد قضيتهم بشماتة ظاهرة وحرص غريب على تلويث سمعتهم وإذلال جانبهم ! ! .

كأن هناك ثأراً شخصياً بين هؤلاء الكُتَّاب وبين أولئك المساكين المحَرجين ، أما غيرهم فتقع منه الخطيئة وإذا الأقلام تتناولها ونصب عينها المثل القائل : « الجُبن سيد الأخلاق » !!!

* * *

الجامع الأزهر

تاريخ الأزهر مشتبك بتاريخ مصر الإسلامية ، ويكاد يسير معه صعوداً وهبوطاً .

ألف سنة أو يزيد مرت على هذا الجامع العتيق وهو يلقى أضواء المعرفة على الشرق الإسلامى كله .

ألف سنة مرت وهو يصون تراث العروبة والاسلام ، ويستبقى علوم اللغة والدين فى حرز آمن من هجمات الفاتحين وتفريط المفرطين .

لقد كادت الثقافة العربية والإسلامية تموت وتندثر فى ليل الحكم التركى الطويل .

ذلك الحكم الذى شل النشاط الأدبى فى العالم الإسلامى ، وكاد يطوى الحضارة الإسلامية فى أكفانه الكالحة .

لولا هذا الأزهر الذى آوت إليه العروبة ولغتها والدين ودراساته ...

بُنِىَ الجامع الأزهر وافتُتِح للدراسة على عهد « المعز لدين الله » مؤسس الدولة الفاطمية فى مصر .

وكان المذهب الشيعى أساس الحكم فى البلاد ، وكان كذلك أساس الدراسة الفقهية بين علماء الأزهر وطلابه ...

ثم لم تلبث الأحوال أن تغيرت فى مصر إذ عاد إليها مذهب السُنَّة بعد ظهور صلاح الدين .

فتضافرت مصر - حكومة وشعباً - على جعل الأزهر مثابة للثقافة الإسلامية ، كما يتصورها جمهرة المسلمين

وبقى « الأزهر » على هذا المنهج يفد إليه الطلاب من المشرق والمغرب ، وتزدهر فيه علوم الشريعة واللغة ، ويقوم برسالته العتيدة فى رعاية من الدولة وإعزاز من الأمة .

ولم يكن علماء الأزهر موظفين يشتغلون بالشئون العلمية فحسب .

بل كانوا حُرَّاساً على تعاليم الإسلام ، يُذكِّرون الحاكم والمحكوم بها ، وينهضون بعبء التوجيه الاجتماعى دون وجل ولا ملل .

وتاريخ « الأزهر » حافل بمواقف شتَّى على تراخى العهود واختلاف الدول التى تتابعت طوال عشرة قرون .

وإن كنا نذكر - تبياناً للحقيقة - أنَّ مناصب الأزهر الكبرى قد ظفر بها أحياناً بعض مَن فرَّطوا فى أمانة التوجيه وحسن والدعوة إلى اللّه .

وقد حكى الجبرتى فى تاريخه قصصاً شتَّى لهؤلاء وهؤلاء .

ولا شك أنَّ الحكم الصالح كان يعنيه اختيار أولى الكفاية والخلق ليضع فى أيديهم مقاليد الأزهر وينتظر منهم تربية الجماهير ، وإعزاز الإسلام ، وغرس فضائله فى النفوس .

ومن الصفحات النقية لعلماء « الأزهر » انحيازهم إلى جانب الأمة كلما رأوا ظلماً يحيق بها من الداخل أو يهبط عليها من الخارج .

ومن هنا كانوا موئل الشعب أيام المماليك ، ثم عندما وقعت مصر فريسة الاحتلال الفرنسى .

ومما يجدر التنويه به أنَّ علماء الأزهر آزروا بطريرك الأقباط « بطرس السادس » فى نزاع نشب بينه وبين كبير الأمراء المماليك « ابن إيواظ » على الأحوال الشخصية لأقباط مصر .

فقد كان هذا البطريرك صلباً فى دينه ، متشدداً فى تطبيق شريعته ، متحمساً فى أخذ رعيته بها مما جعل البعض يضيق به .

وعرض الحاكم أمره على علماء الأزهر . فإذا العلماء يقرون البطريرك على مسلكه ويؤيدونه فى سيرته . مما جعل كبير الأمراء يتراجع عنه ويدعه وشأنه .

وهذه قصة تكشف عن طبيعة السماحة فى الإسلام ، كما تكشف فى الوقت نفسه عن مدى المكانة التى كانت مقرَّرة للعلماء !

وقد ظل الأزهر أميناً على التراث الإسلامى كما ظل صلة وثيقة بين مصر وآفاق العالَم الإسلامى المترامى الأطراف .

بَيْدَ أنَّ اتساع المعارف الإنسانية فى هذا العصر ، وانتظام المدارس والجامعات التى تقوم عليها ، وانتظام الألوف المؤلفة فى سلكها يجعل من حق الأزهر على مصر أن تدعم مكانته ورسالته وهى - فى الحقيقة - إنما تدعم مكانتها ورسالتها هى .

لقد شاءت الأقدار لمصر أن تقتعد مكان الصدارة فى عالَم العروبة والإسلام ، وأن تكون قطب الرحى فيما تستلزمه هذه المكانة من جهاد ثقافى وعسكرى .. وهذا شرف يجب أن نحمل مسئوليته .

بل إننا ابتدأنا فعلاً نتحمل هذه المسئوليات منذ أعلنا استقلالنا الفكرى والعاطفى فى المعترك العالَمى الحالى ، ومنذ تبنينا سياسة الحياد ، وتصدينا لكل مَن يبغى جرنا إلى أحد المعسكرين .

نعم .. لقد أعلنا أننا كتلة ثالثة ، لها خصائصها ومصالحها ، ولها تاريخها وحضارتها ، ولها أمانيها ومتاعبها ، ولها رسالتها التى تود أن تحيا فى ظلها ، وتكره أن تستظل برسالة غيرها ..

وهذا الموقف يتقاضانا أن نُنعم النظر فى ماضينا الطويل ، وفى واقعنا المعاصر لنُبرز الحقائق التالية :

١ - إننا أُمة عربية ارتضت الإسلام ديناً ، فهى لا تقبل مراء فى عروبتها ولا فى إسلامها .

٢ - إنَّ هناك عللاً وأخطاءً ، تعرضت لها أمتنا فى تاريخها الطويل تتنافى مع مقتضيات العروبة والإسلام فيجب أن تبرأ منها .

٣ - إنَّ تقوية معدننا وصقله وتوفير أسباب القوى حوله اذا كان أمراً لازماً فى كل عصر ، فهو فى هذه الأيام ألزم لنستطيع الثبات فى حومة النزاع العالمى القائم .

٤ - إنَّه لا بد من زياد الأفكار الداخلية والشُبهات الوافدة ، وتحصين الأجيال الجديدة من وساوسها ، حتى تشب مستقيمة الفكر ، نقية الوجدان ..

وبناء نهضتنا على تلك الدعائم لا يحتاج إلى استيراد مواد من الخارج .

فإن اللَّبنات المطلوبة موجودة عندنا . قال الأستاذ « محمد أبو زهرة » :

إنَّ التوحيد الفكرى والثقافى والنفسى لا يحتاج إلى إنشاء ولكن يحتاج إلى توجيه وجمع ، فإنَّ الأصل قائم ثابت .

وحيثما اتجهتَ إلى بلد إسلامى ، فإنك تحس بأنَّ الاتفاق النفسى والفكرى موجود ، وأنَّ الفكرة العامة قائمة ، والعروة الجامعة لأساليب الفكر الإسلامى ثابتة .

ولا يوجد بين أهل دين أو أهل مذهب اقتصادى أو اجتماعى ، مَن تتلاقى أفكارهم حول اتجاه معيَّن لا يحول ولا يزول كما تجد ذلك بين المسلمين .

ولقد قُدِّر لى فى الندوة الإسلامية الكبرى التى عُقدت بـ « لاهور » أن ألتقى بالوفود التى نزحت من البلاد الإسلامية على اختلاف الطوائف فيها .

فما وجدتُ ثغرة فكرية بينى وبينهم ، لا فرق فى ذلك بين « سُنِّى » و « شيعى » ولا بين « صينى » و « روسى » و « تركى » .

وإذا كانت ثغرة بيننا وبين أحد ، فما كانت إلا بيننا وبين زنادقة هذا العصر الذين يتسمون بأسماء إسلامية ولا دين لهم كهذا الذى ينكر أحكام آيات المواريث ، ويدَّعى أنها وقتية .

أو كهذا الذى يُنكر النبوَة ، وأمثالهم ممن نبذ المسلمون كلامهم فى المؤتمر ، كما تُنبذ النواة

والسبب فى ذلك الاتحاد الفكرى الذى لا يحتاج إلا إلى الجمع والتوجيه والتنظيم هو وحدة المصدر والاتفاق عليه والالتفاف حوله .

فقد اتفق المسلمون جميعاً على أنَّ الإسلام له مصدر واحد يُؤخذ من نصوصه المحكمة ، وهى أولاً نصوص القرآن التى لا تقبل تغييراً ولا تبديلاً :

﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (١) .

وثانياً : أقوال النبى - صلوات الله وسلامه عليه - وسائر سُنَّته .

وإذا كانت بعض الطوائف مختلفة فى طريقة روايتها ، فإنَّ الأصل الذى يقوم عليه عمود الدين ، وفقه الإسلام وأحكامه متَفق عليه .

وإذا كانوا ينتهون إلى حكم واحد فى أُصول الإسلام والإقرار بجملة السُنَّة التى تدل على هذه الأصول ، فإنَّ الغاية قد اتحدت ، وأصل الوحدة الثقافية قد ثبت من غير نكير ، ومن غير تعاند وتنابز بالأسماء.

وإن كانت أنواع من الجدل قد وقعت وما زالت ، فذلك لا يضير فى شئ .

إنها أحياناً من ضيق الفكر لا من اختلاف الثقافة ، كما رأينا فى صدر حياتنا من ملاحاة فكرية بين الشافعية والحنفية .

وقد تجئ من عمق الفكر كما يسجل التاريخ الفقهى من مناظرات ، بين أتباع هذين المذهبين الجليلين ببلاد ما وراء النهر فى القرنين الرابع والخامس .

تلك المناظرات التى كانت محمودة العاقبة منتجة مثمرة ، لأنه قد ترتب عليها تأييد الفروع بكلا المذهبين بالأقيسة العميقة وتنقيح الروايات فى الأخبار المؤيدة .

وفى هذا المعترك اقتبس كل مذهب من الآخر ..

---

(١) فصلت : ٤٢

إنَّ هذه حقيقة ثابتة لا مجال للريب فيها ، وهى وجود نواة الوحدة الفكرية والثقافية والنفسية ، فى كل البلاد الإسلامية ، مهما تختلف فيها الطوائف والمذاهب .

ولكن الأمر الذى نريده ، هو توجيه العناصر والعمل على إنمائها ، وإيجاد مجتمع فكرى يبنى كيانه على دعائم الإسلام ، ويقف حاجزاً دون النزعات المنحرفة التى تتغلغل الآن فى صفوفه ، وتلقى بالريب على حقائقه ، حتى يكشف زيغ أولئك الذين اصطفاهم أعداء الإسلام ليحلوا عراه ، ويلقوا بالشك فى أفئدة أهله ...

ويزيد - مع هذا - جمع تراث الماضين ، لا فرق فى ذلك بين التراث الذى تركه السابقون من الشيعة ، وبين التراث الذى تركه أئمة الأمصار ذوو المواهب المعروفة ، وغير المعروفة ، إذ كان كل ذلك من تراث السابقين ، وثمرات غرس الموَحِّدين ، فهو تراثنا جميعاً ، لا فرق بين سُنِّى وغير سُنِّى ...

وهذا الكلام تبيان حسن للرسالة التى يمكن أن يضطلع الأزهر بها وينهض بحملها .

وبذلك تجد الكتلة الثالثة المنبع الذى تحتاج إليه لإسالة العقائد الدافعة والمشاعر الحية والآمال العريضة ..

إنَّ هذه الكتلة تبدأ طريقها الآن وسط عقابيل شتَّى ، من وهن الماضى ، ومن دسائس المستعمر .

بَيْدَ أنَّ المنقذ الوحيد لها والسياج المنيع حولها لن يجيئها إلا من الإسلام ...

والوحدة الشائعة فى جنبات هذه الأمة ، ومناطقها المترامية لاحظها أعداؤها أنفسهم .. قال الدكتور « محمد البهى » :

« الإسلام - كما يقول عنه المستشرق الإنجليزى « جب » - قد انتشر انتشاراً سريعاً فى فترة لا تتجاوز قرنين ونصف قرن .

وقد كان من أبرز آثار هذا الانتشار السريع الذى تكوَّنت خلاله الحضارة الإسلامية الكاملة أنها نشأت حضارة موحدة

إذ لم تكن هناك فرصة لتأثير العناصر الإقليمية المختلفة أو الثقافية المتباينة فيه .

فلما انتشر الإسلام بعد ذلك فى أقطار الأرض لم يكن ديناً ساذجاً ، ولكنه كان نظاماً كاملاً للحياة .

ولذلك ترى أنَّ اتساع رُقعة العالَم الإسلامى من « المحيط الأطلسى » إلى « المحيط الهادى » لم يؤثر فى وحدة الحضارة الإسلامية ، على غير ما تقضى به العادة » [1] .

ثم قال : « الأزهر هو المعهد الذى يجب أن يقوم بإشاعة الوعى الإسلامى » .

وإذا كانت قوة الكتلة الثالثة تتوقف على إشاعة الوعى الإسلامى بين أفراد هذه الكتلة من « المحيط الأطلسى » إلى « المحيط الهندى » وعلى قوة الإيمان برسالة الإسلام - فلا بد أن يكون هناك مركز ما لتوزيع هذا الوعى ، ودفعه ، وتأكيد الإيمان بالإسلام فى نفوس المسلمين .

ونحن إذا اتجهنا للتفتيش عن مركز يقوم بهذه الرسالة لا نجد سوى « الأزهر » فى رُقعة العالَم الإسلامى كله ، أو فى موطن الكتلة الثالثة .

إنَّ الجامعات الحديثة فى هذا العالَم الإسلامى هى جامعات لا تعنى بالأيديولوچية ولا بالنظام الفكرى لأصحاب هذه الكتلة .

وإنما عنايتها بأمُور أخرى كالعلوم والرياضة وفروع الدراسات الهندسية المختلفة وما إليها .

وإذا عنيت بأيديولوچية ما فإنما تعنى بفكرة منثورة لا تكون نظاماً متكاملاً يكون شرقياً ، أو غربياً ، أو إسلامياً .

الأزهر وحده - وليست الجامعات الحديثة - هو مركز هذا الإشعاع .

الأزهر فريد بهذه الرسالة ، لا يوجد له مشارِك قديم أو حديث فى إطار الكتلة الثالثة .

---

(١) طريق الإسلام ص ١٥ - ١٧

ومنذ أن قام إلى اليوم وهو مركز الرسالة الإسلامية .

سواء ما يتعلق بدراسة تعاليمها المباشرة ، أم ما يتعلق بدراسة الوسائل التى تصحح فهمها وتصورها ، وهى اللغة العربية وما يتصل بها من دراسات » .

* * *

فى الإمكان - بوسائل يسيرة - أن يكون الأزهر عوناً بالغ النفع فى تحقيق الأهداف التى نسعى إليها ، وتقريب الآمال التى ننشدها .

بل هو فى وظيفته المنوطة به ، والرسالة المعلقة عليه ، والتاريخ الطويل الذى يصحبه وتقدير المسلمين الذى يحف به ... هو فى هذه النواحى جميعاً لا يقوم عنه عوض .

ونستطيع أن نُدرك خطورة العمل الذى يؤديه « الأزهر » - لو حيا ونهض - فى ضوء الحقائق التالية :

١ - أنَّ الاستعمار يتوسل بالتبشير المنظَّم ، وبث الإرساليات ، وبناء الكنائس على ترسيخ أقدامه فى إفريقيا وآسيا ، وعلى تكوين أجيال ترضى بوجوده ، بل تحرص على بقائه ، لأنها ترى فى الدين الذى رباها عليه آصرة روحية يلبى نداءها دون حَرَج .

والغرب المسيحى لا يهمه من النصرانية إلا أن تكون طليعة تمهد لزحفه ، وإلا أن يكون رجالها عملاء له حيث كانوا .

٢ - أنَّ دولة « إسرائيل » لا تعرف إلا الدين رباطاً يصل بين رعاياها على اختلاف أجناسهم .

وهى تجعل من العصبية الدينية وحدها الوقود العاطفى الذى تستبيح به جيرانها وتبيت لاجتياحهم .

وقد قرأتُ فى الصحف أنَّ كاهناً يهودياً خطب فى الشعب الإسرائيلى . فقال - مبشراً قومه بالنصر فى المعركة الأخيرة :

« إنَّ لدينا مائة وبضعة عشر سلاحاً سرياً ، سوف تكتب لنا النصر فى صراعنا مع أعدائنا .

أتدرون ما هذه الأسلحة ؟ إنها جملة الإصحاحات التى تضمها التوراة المقدسة »!!

فإذا كان الدين فى الهجوم السافر علينا مصدر الطاقة العنيفة التى تواجهنا .

فمن العجز ألا تقوم جبهة الدفاع عليه ، أو أن يخلو المعسكر العربى منه .

ودور « الأزهر » هنا أن يرعى عناصر المقاومة بعد أن يصلها بالإسلام ، لا على أنَّ التمسك بالدين ضرب من التعصب الأعمى أو إثارة لأحقاد طائفية صغيرة .

بل على أنَّ قيام الحقيقة وحراسة الحقوق وكسر العدوان ، ومنع الفساد فى الأرض إنما تتم فى ضوء عقيدة دافعة وإيمان نابض ، وحماسة تنبعث من الأعماق ، وتهون معها التضحيات .

والواقع أنَّ أخصب تُربة لإنتاج المعانى هى التدين الصحيح .

وفى ضغط الحصار الاقتصادى على مصر وزميلاتها من الدول المتحررة ، يمكن للشعب المصرى ولغيره من الشعوب الإسلامية أن تتحمل الجوع والعرى .

وذلك عندما يكون باعث الإيمان هو المُحرِّك للكفاح .

بل إنَّ الجماهير لتشعر بالسعادة وهى تحتسب عند الله ما تعانيه من حرمان ، ولا يمكن أن يُسمع لها ضجيج أو شكاة ، لو أنَّ رجال الأزهر ينسابون - دون تظاهر أو افتعال - لتثبيت اليقين فى الأفئدة وتصبير الناس على اللأواء .

إنَّ إحياء الأزهر وسيلة لا شك فى جدواها ، إذا أردنا - على عجل - أن نصنع حركة بعث شعورى يساند ما نبغيه من نهوض سياسى عسكرى !!

وهناك نظرة أخرى .

إنَّ القومية العربية التى نريد أن نجمع عليها شتاتنا ونُرسى على دعائمها تاريخنا الجديد ، هذه القومية جزء كبير من الانفعالات العامة التى تتحرك بها أمتنا من « المحيط الأطلسى » إلى « الخليج الفارسى » ..

هى جزء كبير مهم من هذه الانفعالات .

والتعويل على هذا الجزء وإبرازه ، وإقراره عنواناً فذاً لتوراث التحرير المشتعلة هناك . له مبرراته المقدورة ، وله ظروفه الإقليمية والعالَمية .

بَيْدَ أنَّ هذه القومية التى نغالى بها ينبغى ألا تُنسينا هذه الحقائق :

١ - أنَّ الجمهرة الكبرى من عرب افريقيا وآسيا مسلمون .

وأنَّ استمساكهم بمواريثهم العاطفية والفكرية من هذا الإسلام يحتل منطقة واسعة من عقلهم الباطن والظاهر .

ومن هنا لا يسوغ تجاهل أسلوبهم فى الحياة وأحكامهم على الأمور .

٢ - أنَّ العروبة نفسها قطعة من الإسلام بحيث لو انفصلت عنه لما بقيت لها أمجاد تاريخية تُذكر ، ولا أهداف سياسية تُعينها على الحياة .

٣ - أنَّ أعداء العروبة لا يستطيعون - نفسياً ولا عقلياً - أن يفصلوا بينها وبين الإسلام .

ولذلك نراهم حُرَّاصاً على مخاصمة النزعة العربية المجرَّدة بدوافع دينية قوية . كأن العروبة أسلفت ذنباً لا يُغتفر لها أبد الدهر .

وهو أنها حملت الإسلام يوماً ما لهذا العالَم ... وأنه يجوز - لو أمكنتها الحياة وواتتها القوة - أن تحمل هذا الإسلام للناس مرة أخرى ...

وهذا الحقد المكين ضد الإسلام سر المؤامرات المستمرة فى كل ميدان ضد العربة المطلقة .

وهو - لا شك - سر إصرار الدول المستعمرة الكبرى على إقامة « إسرائيل » وتمزيق اللاجئين والتوجس من كل زعامة تحيى العروبة وتشد أوصالها .

وواجب الأزهر بإزاء هذا الموقف المعقّد ضخم ومتشعب ويحتاج إلى رجال ذوى بصر وإخلاص ، كما يحتاج إلى تجديد شامل فى مناهجه وأسلوب حياته .

وقبل ذلك .. لا بد أن نقنع أنفسنا بالحاجة إلى الأزهر نفسه ليملأ الفراغ المتخلف عن ضعف التوجيه العربى والدينى فى أرجاء الوطن العربى الكبير ، وليغالب ما تركته عصور الضعف الداخلى والغزو الأجنبى من مخلّفات تعوق النهضة وتؤخر مسيرتها إلى الأمام ...

ومن الحقائق التى يجب أن نواجهها فى صراحة ، أنّ عروبة « لبنان » فى خطر .

وأنّ بقايا الإسلام فى القلوب المؤمنة هى التى تستبقى الحياة فى التيار العربى المناوئ للاستعمار هناك .

وأنّ شرق إفريقيا كله مهدد بطعنة استعمارية غائرة ، يملأ المستعمرون أيديهم بها من الأحوال التى خلقوها خلقاً فى جنوب السودان وفى الحبشة خصوصاً بعد إذلال مسلمى « أريتريا » وضمهم فى اتحاد فيدرالى إلى الحكومة المتعصبة الحاقدة .

حكومة « أديس أبابا » ... !!!

وكذلك الصومال التى تتربى الآن على أرضه عناصر تُضمر الشر للعروبة والعرب أجمعين .

إنّ بقايا الإسلام فى هذه البلاد كلها هى التى تقاوم الاستعمار.

وتوجد فى ربوعها بعوث أزهرية مبعثرة ، تافهة الإمكانيات ، بل تافهة القُوَى الروحية بالنسبة إلى الإرساليات التبشيرية التى توفدها أمريكا وإنجلترا وفرنسا ...

ولا بد أن تعيد الدولة - دون تريث - إلى موقفها من الأزهر لتجعل منه مستودعاً معبأ بالكفايات العلمية والخُلُقية .

ومن هذا المستودع تبعث بالأمداد إلى أرجاء الأمة العربية الكبيرة كي تضمد جراحها وتنهضها من كبوتها .. ولتنفخ فيه روح الثورة على الاستبداد والاستغلال حتى تنعم بالرفاهية والسلام .

إنَّ مكاسب مصر من الأزهر فوق الحصر والتقدير ، لو أنها زودته بأسباب الحياة والازدهار ووصلت ما انقطع من أواصره بالعروبة والإسلام ...

* * *

والأزهر الآن يتكون من ثلاث كليات تمثل الدارسة العليا فيه ، وبضعة عشر معهداً تنتشر في عواصم الأقاليم وتضم عشرات الفصول للدراسة الابتدائية والثانوية الخاصة .

ونحن نُلقي نظرة عجلى على هذه الكليات الأزهرية أولاً :

(أ) فكلية أُصول الدين ، مفروض فيها أن تدرس العقائد والأخلاق والفلسفة الإسلامية وأنواع الملل والنحل والمذاهب الاجتماعية والإنسانية ... إلخ .

وعلى ضوء من الاستبحار فى « علم النفس » و « الاجتماع » و « التاريخ » يتأهل خريجوها للإمامة والوعظ والإرشاد ونشر الإسلام فى الخارج وتعليمه للنشء فى الداخل .

وفى هذه الكلية تخصص الدعوة والإرشاد ، يعطى إجازة فنية فى هذا المجال الخطير .

وهذا التخصص يحتضر من بضع سنين ، ولا ينتسب له إلا لفيف من العميان والمشوَّهين الذين أُحصروا فى سبيل اللّه - كُرْهاً - لأنهم لا يستطيعون ضرباً فى الأرض .

وإذا كانت الشكوى لا تنقطع من تفاهة الخُطب الدينية وفشل الدعاة الإسلاميين فى السيطرة على المجتمع المصرى وغيره من المجتمعات الشرقية فالسبب لا يُعيى الباحثين !

السبب أنَّ هذه الكلية لم تؤد الرسالة المرتَقبة منها لنقص بيِّن فى مادة الدراسة وفى كفاية الرجال المشرفين على الكلية .

بل كذلك لعجز المسئولين الكبار فى الأزهر عن فهم طبيعة هذه الكلية وما يُعلَّق على نجاحها من آمال ضخام .

إنَّ الدرسة إذا ضعفت أو اضطربت فى « كلية الطب » فلن يتخرج منها رجال يؤمَنون على صحة الناس وحياتهم .

والدارسة إذا ضعفت أو اضطربت في « كلية أصول الدين » فلن يتخرج منها وعَّاظ أكفاء ولا مرشدون أمناء .

وستظل مصر - وهى زعيمة البلاد العربية - تحس أزمة شديدة فى الرجال الذين يقودون زمامها الروحى ويعقدون أواصر الفضائل وعُرا الأخلاق .

وستظل كذلك تحس أزمة في الرجال الذين تُوفدهم إلى الخارج ليغرسوا العقائد الدافعة ويحرسوا النهضات الوليدة ويقاوموا تحالف التبشير والاستعمار .

(ب) كلية الشريعة الإسلامية ...

هذه الكلية أُسست لتصون التراث الإسلامي فى عالَم القانون ، ولتذود الغزو التشريعى الأوروبى عنه .

فتجعل سياسة التقنين منبجسة من طبيعة البلاد وتقاليد أهلها .

وامعروف أنَّ الروس مثلاً ينظرون - بريبة شديدة - إلى القوانين التى يصنعها الغرب للمجتمعات التى يحكمها .

ويرون فى بقائها ذيولاً طويلة لسلطانه الأدبى أو لمآربه الكثيرة فى الأقطار التى يفتحها والتى قد تُكرهه الظروف على التخلى عنها ... إلى حين ...

ونحن نوقن بصدق النظرة التى أشار إليها السيد رئيس الجمهورية وقال فيها :

إنَّ نظمنا الاقتصادية لن تُستَورد من الخارج . بل سنصوغها من طبيعة حياتنا ووحى عقائدنا وتقاليدنا .

وهى نظرة تطرد فى ميادين نشاطنا كلها وتشمل آفاق التشريع جميعاً ، ولا يُستثنى منها قانون معيَّن .

ومع تقديرنا للوضع المصرى الحساس فى النواحى التشريعية ، ومركزنا الدقيق فى المؤسسات العالَمية ، فإنه لا يجوز ألبتة إغفال الدراسات العلمية للشريعة الإسلامية وإبراز معالم الكمال التى تختص بها ، وعقد المقارنات بينها وبين شتَّى التشريعات ، وفتح باب الاجتهاد ليمكن إدخال المعاملات المتجددة فى دائرة الإسلام الرحبة ..

وينبغى أن ينشأ تعاون علمى وثيق بين « كلية الشريعة » هذه وبين كليات الحقوق الأخرى .

والكلية الآن بحاجة ماسة إلى إعادة النظر في مناهجها ورجالها .

فهى - بحالتها الراهنة - تشبه متحفاً للأفكار القديمة .

وصلتها واهية أو منقطعة بقضايا المجتمع وتطور الحياة وحركة التشريع .

إن الثروة الفقهية فى الإسلام بحر متلاطم الأمواج .

وكفاح الأئمة فى أُصول التشريع وفروعه جَهد لا نظير له فى الحضارات الأُخرى .

وسنرى أنفسنا - مع التغييرات الهائلة التى تطرأ على العالَم - مضطرين إلى إدمان النظر فى قوانيننا ، حتى تتواءم مع مقتضيات الحياة الجديدة .

فلنمهد للنظر الصائب بجعل « الأزهر » يحيى الشريعة الإسلامية .

وهو إذا أبرزها على طبيعتها النضرة فستهفو إليها القلوب وتتعلق بها الأبصار .

وتلك هى رسالة « كلية الشريعة » ...

(ج) كلية اللغة العربية ..

أنشئت هذه الكلية لحماية علوم اللغة وآدابها .

ولا شك أنَّ الصلة قائمة بين قوة اللغة وقوة أهلها .

وكلما اتسعت الرُقعة التى تنتشر فيها لغة ما ، دلّ ذلك على عظم الشأن وسعة النفوذ .

ولعل وحدة اللسان بين الإنجليز والأمريكان كان لها أثر يُذكر فى مسارعة هؤلاء إلى نجدة إخوانهم فى حربين عالَميتين مروّعتين ...

ونحن نعرف كفاح « الإنجليز » فى نشر لغتهم .

حتى إنهم ليخصصون ساعات من إرسال الإذاعة الإنجليزية فى « لندن » لتعليم الأجانب هذه اللغة .

وجهد الفرنسيين فى ذلك معروف جيداً .

وقد تواطأت الدول المستعمرة كلها على وأد اللغة العربية وتنظيم حرب مستمرة ضد بقائها .

وهى تبغى سلخ المسلمين من دينهم وتاريخهم ومقوّماتهم المعنوية بأسرها عن طريق تجهيلهم فى لغتهم وتزهيدهم فى قواعدها وتحقير حروفها وإملائها .

ومن ثَمّ فإنّ المحافظة على اللغة - بدقة بالغة - هى أولى الخطوات للنجاة بأنفسنا من مهاوى الضياع ، وبقاء العرب فى القارتين القديمتين متعصبين للسان العربي ضرورة لا محيص عنها فى تماسك كيانها وضمان مستقبلهم .

ويجب تمكين « الأزهر » من المحافظة المتزمتة على هذه اللغة .

فإن شعوب الأرض المحترمة لا تُفرّط فى تراثها اللغوى .

فكيف يُستنكر ذلك على أُمة ذات رسالة كبرى ، لها دين يُقدّس اللغة العربية ويجعلها لغة التخاطب الرسمى بين مئات الملايين من المسلمين ؟ بل لغة المناجات الأولى فى صلوات المسلمين لله رب العالَمين ؟

وليس أمر اللغة فقط هو المهم ، بل أمر الأدب العربى من شعر ونثر وعلم وفن .

إنّ الكتاب العربى الذى يصدر فى مصر وينتقل بين الدار البيضاء غرباً و « سور أبايا » شرقا هو الحبل الروحى المتين بين مصر وجاراتها العربيات وشقيقاتها المسلمات .

والواجب أن تبقى « كلية اللغة العربية » بدراساتها القديمة والمحدثة ، وأن تُزاد قدرتها على تكوين أجيال تعتز بلغتها وتفقه قواعدها وتتذوق روائع الأدب العربى وتجلو الغبار عن المطوى منه .

لقد مرت أيام كان الكلام مع مراعاة النحو يعتبر سخفاً ، أو كان معرّة يُعرف بها الأزهريون !!

ولعل ذلك بعض مظاهر البغضاء التى يكنها الاستعمار للغة البلاد ، حتى يخرج أقواماً يحسنون الرطانة بأى لغة وتحمر وجوههم خجلاً لو أخطأوا في حرف منها ...

ومع ذلك لا يستطيعون تركيب جملة صحيحة بلغة البلاد .. لغة الآباء والأجداد .

أليس الكلام النحو أشرف من هذا العجز ؟

وحبّذا لو أُرسلت بعوث أزهرية إلى البلاد الإسلامية الأعجمية ، مهمتها الوحيدة تعليم اللغة فحسب ... إنّ ذلك يكون خدمة جلى للعروبة والإسلام .

* * *

وقبل أن نتحدث عن التعليم الابتدائى والثانوى فى المعاهد الدينية ، يجب أن نلفت النظر بقوة إلى قسم البعوث الإسلامية ...

إنّ هذا القسم من نِعَم اللّه الكبرى على مصر يجيء إليه أبناء المسلمين من إفريقيا ومن آسيا ، وفى أفئدتهم حب جارف وأمل طامح .

إنهم يجيئون مسوقين بدوافع الإيمان عند أهليهم .

وكان من المستطاع أن توضع سياسة حكيمة حصيفة للإفادة من هذه الوفود الطيبة وقيادة الشرق الإسلامى كله عن طريقها .

ولكننا نقرر - والحسرة تملأ أنفسنا - أنَّ هذه الوفود تغدو وتروح دون جدوى .

إنَّ الإنجليز والفرنسيين يصنعون البعثات الأجنبية فى بلادهم صناعة متقنة .

ويغرسون فى لحمهم ودمهم معانى خاصة ، ويتعاونون - رجالاً ونساءً - على جعل البعوث العربية والشرقية أقواماً مربوطين بهم مادياً وروحياً ، متوجهين إليهم فى كل أفق كما يتوجه النبات المعروف بـ « عبَّاد الشمس » إلى الشمس ...

وقد كنا نستطيع الاستغناء عن نصف بعوثنا الديبلوماسية وعن أغلب ملحقينا الثقافيين فى إفريقيا وآسيا لو أننا أحسنا العناية بالبعوث المخلصة التى تجيئنا من هنا وهناك .

والتى تريد - لوجه اللّه - أن تعمل معنا ، بل أن تتلمذ علينا .

إنَّ قسم البعوث خلف ردىء للقسم العام فى الأزهر .

وهذا القسم كان ينتسب إليه عدد كبير ممن يسمون « الغرباء » !

والغرباء عنوان وُصِمَ به أبناء البعوث من مسلمى القارتين !!

وقد ذهب العنوان تقريبا وبقى الموضوع كله .

فإنَّ أولئك المبعوثين لا يزالون غرباء فى حياتهم وفى تعليمهم وفى الإشراف عليهم ...

وكان من السهل رسم سياسة دراسية اجتماعية لرعاية أولئك الوافدين النافعين .

بَيْدَ أنَّ الأزهر لم يخط فى هذا الميدان الخطوات الصائبة المنتظرة .

ولا حَرَج من التصريح هنا بأنَّ الموظفين الذين وُكِّلَ إليهم أمر البعوث يفقدون الاستعداد النفسى لهذا العمل .

ولا بد من رسم سياسةٍ جديدة واختيار رجال لهم صلاحيات عاطفية وعقلية تتواءم مع الوظائف المتصلة بهذه البعوث ..

ومن المفيد استبقاء مدينة البعوث المنشأة حديثاً ، وجعلها على غرار بيوت الطلبة التى تتبع الجامعة العربية ، مع توفير عناصر البيئة الصالحة والتربية الإسلامية فى هذا الجو الذى يتخرج فيه شباب عربى مسلم قد يتولى يوماً قيادة « الملايو » أو « أندونيسيا » أو « الكونغو » أو « الصومال » .

* * *

أما المعاهد الابتدائية والثانوية فمن الخير استبقاؤها مؤقتاً ...

إننا لا نُرحِّب بالتخصص المبكِّر فى أية دراسة .

ولا نُرحِّب كذلك بهذا الانفصال الذى يُباعِد بين فريقين من الأُمة ويقيم بينهما حواجز شتَّى ..

ومن مصلحة الدين وأهله المبلِّغين له ألا ينشأوا فى هذه البداية الموحشة .

بَيْدَ أننا مع ذلك نرى الوقت لم يحن لتوحيد التعليم الدينى والمدنى .

فإنَّ الأُسس التى يتم عليها هذا التوحيد فى أسلوب يطمئن أصحاب الغيرة على الدراسات الإسلامية لم تتضح بعد .

ثم إنَّه لا محل للعجلة فى الإسراع بهذا التوحيد ، فإنَّ أمام التعليم العام مشكلات تفتقر إلى بضع سنين قبل أن تحل .

وفى مقدورنا إدخال طائفة من التعديلات على سياسة التعليم الابتدائى والثانوى فى الأزهر ، تخفف من حدة العيوب التى ذكرناها آنفاً ..

وتقوم على الإكثار من العلوم الكونية والدراسات العامة وضم إحدى اللغات الأجنبية .

كما تقوم على التخلص من بعض الكتب العتيقة وما تحويه من أفكار سقيمة .

ومن الخير الانتقال بحملة الثانوية الأزهرية فى الوظائف العامة ، وفتح معاهد تربوية لهم كى يستطيعوا القيام بمهمة التدريس فى المرحلة الأولى .

ولو أدى ذلك إلى إغلاق المدارس المدنية التى تقوم بهذه المهمة . كمدارس المعلّمين مثلا ..

وهذا المجال الجديد يخفف الضغط على الكليات الأزهرية ، ويجعل التخصص فى الدراسات الدينية العليا وقفاً على مَن تؤهلهم مواهبهم ورغائبهم لهذا النوع من التعليم ، وفى هذا تقليل لـ « الكم » وتكثير فى « الكيف » .

إنَّ الخير الغامر سوف يعود على مصر بإحيائها الأزهر ورفعه إلى المستوى اللائق بمكانته .

وما دامت العروبة قد أصبحت شعارنا المحلى والعالمى فمن وضع الأمور فى نصابها أن نهيئ فرص الحياة والإنتاج والترقى لهذا المعهد العتيق ، وأن نزوِّده بالقوى المادية والأدبية التى تحقق أمل المسلمين فيه ، والتى تدعم مكان القيادة التى تحتله مصر بين الأقطار العربية والإسلامية . وإلى جانب المقترحات التى أومأنا إليها فى أثناء وصفنا لأحوال الأزهر يحسن أن نلخص ضروب الإصلاح التى يجب الأخذ بها للنهوض بهذا الجامع الكبير حتى يؤدى رسالته العلمية والإسلامية على خير وجه :

١ - هناك علوم مدنية كملت دراساتها وأحرزت فى المجتمع الإنسانى نجاحاً يُذكر .

ومن الواجب أن تُدرس مبادئها فى المعاهد الثانوية كعلوم النفس والاجتماع والاقتصاد والتغذية والإحصاء وما إليها ...

ثم يستبحر الطلاَّب فى شرحها إذا دخلوا الكليات الأزهرية .

فذلك أعون لهم على فهم الحياة وتوضيح الإسلام ..

٢ - العلوم الدينية الأساسية ينبغى أن يُعاد النظر فى أسلوب دراستها .

فيُدرس - مثلاً - فقه الكتاب والسُّنَّة ، ثم يدرس بعد ذلك فقه المذاهب فى المراحل الثانوية ، لا أن يتخصص الطالب ابتداءً فى أحد المذاهب الأربعة كما يحدث الآن .

ويجب أن يُعاد النظر فى دراسة السُنّة ، فتُختار أبواب موصولة بالحياة ، ويُدرس طرف من علوم القرآن فى المرحلة الثانوية .

كما يجب أن يُدرس الإسلام كنظام متكامل تتضح فيه المعالم الاجتماعية والسياسية لا دراسة جزئية حرفية كما يحدث الآن .

٣ - التاريخ الإسلامى لا بد أن تتسع برامجه وأن يُدرس دراسة توجيهية ..

كما يجب أن يُدرس التاريخ العالمى العام وتاريخ كل من اليهودية والنصرانية على حدة .

وأن توزع هذه الدراسة على شتّى مراحل التعليم الأزهرى .

٤ - يجب إحياء دروس « المطالعة » و « المحفوظات » و « الأدب العربى » وتزويد الطلاّب بأُمهات الكتب فى هذه الميادين .

٥ - يجب فسح المجال أمام خريجى الأزهر حتى يختلطوا بجميع طبقات الأمة ، وأن تُتاح لهم فرص العمل فى أية وزارة . وأن تسوى الدولة بينهم وبين خريجى الجامعات الأخرى مادياً وأدبياً .

٦ - العناية باختيار مَن يملأون المناصب الإدارية كلها من « شيخ الأزهر » إلى « شيخ المعهد الابتدائى » . وتحرى أن يكونوا على حظ ظاهر من الكفاية والتدين والنضج العقلى والخُلُقى .

* * *

وكلمة أخيرة حول القيمة الإنسانية للدين ، وتعليمه ، والأخذ به !

إنَّ الدين ضرورة لا بد منها . ولنعلم يقينا - أنه لا يُغنى عن الدين شىء .

والفارغون يجادلون فى ذلك ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (١) .

---

(١) الأنعام : ١١٢

ومما يجرى على الألسنة - تحقيراً للدين ، وصرفاً عن سبيله - أنَّ كثيراً من أتباع الدين ليس لهم خُلُق قويم ، ولا سيرة شريفة ، وأنه بحسب المرء أن يكون على حظ من سعة الثقافة ، ودقة الذوق ، ويقظة الضمير ليكون إنساناً كاملاً ولو اطرح من قبل ومن بعد كل الواجبات الدينية فلم ينهض إلى صلاة ، ولم يعبأ بصيام ..

وهذا كلام معلول من أوله إلى آخره ، فلا كمال للبَشر إلا فى ظل الدين ، ولا شىء يعدل الدين ألبتة فى تزكية النفس ودعم المجتمع .

نعم .. هناك أقوام ينتسبون إلى الدين ، ولا يحسنون العمل به ، ولا فقه روحه ، ولا إقامة نصوصه ، ولا يكونون أبداً حُجَّة على الدين ، أو مثار اتهام له .

ومَن ذا الذى يُحمِّل المبدأ خطأ الأتباع فى الإدراك والتطبيق ؟

وهل يسلم فى الدنيا مبدأ بعد ذلك سواء أكان دينياً أو فلسفياً ؟

وهناك أقوام يجيدون أداء صور العبادات دون أن يشربوا روحها أو يحسنوا إقامة الرسوم والأشكال دون نفاذ إلى الجوهر واللب فى منطق العقيدة وفروض الإيمان .

وذلك قصور أو تقصير يقع على رؤوس أصحابه ، ويزرى بمكانتهم وحدهم .

وهم فى حكم الدين عُصاة ، وأمام اللّه مُفرِّطون .

وما يقع فى سلوكهم - من غش أو كذب أو خلف - فهم مسئولون عنه مؤاخذون به ، والدين الذى يتبعونه أول من يحاسبهم على ذلك وأول مَن يُحدِّد أقدارهم ويزن أوزارهم .

وأعرف - كما يعرف غيرى - أنَّ أدعياء الدين كثير ، وقد شكا الأولون والآخرون من ظواهر التقى الكاذبة ، وممن يجعلون الصوات شباكاً لاصطياد المنافع وبلوغ المآرب .

لكن أحداً من ذوى الألباب لم يتذرع بمسلك هؤلاء إلى القول بأنَّ الدين نفسه لا يصلح وسيلة لإقرار الفضيلة وبلوغ الكمال ..

أما الزعم بأنَّ استبحار المعرفة ، ويقظة الضمير يُغنيان عن الدين ، فهذا كلام باطل . فكم من علم كثير صحبه فساد الذمة وذهاب الفضل ؟

وأما غناء الضمير عن أصل الإيمان وفرائض الصلاة والصيام فذاك أيضاً من أوهام الحالمين ، وخيالات الحائرين .

إنَّ على الإنسان واجبات شتَّى .

أولها : واجباته نحو ربه الذى خلقه فسوَّاه .

والمرء الذى يجحد نِعَم اللّه المولى ويمارى فى حقوقه ، ويتهرب من فرائضه ويتشهى محارمه شخص ساقط الضمير ، لا ثقة به ولا تعويل عليه .

وقد يكون هذا الشخص مقبول السيرة بين الناس أومضبوطاً فى بعض المعاملات أو له خصائص نفسية وعقلية ثمينة .

بَيْدَ أنَّ ذلك لا يدعو إلى المجازفة فى تقدير قيمته ورفع خسيسته .

إن الآلة العاطلة قد يكون بها من الحديد ما لو بيع « خُردة » لساوى الكثير، فهل ذلك يُعلى من قدرها ويغض توقفها وفسادها ؟

الواقع أنَّ الذين يحترمهم المجتمع لما ينسبه إليهم من ارتقاء الضمير ، إنما يُغالى ببعض نواحيهم ويبرزها ويتجاوز عن البعض الآخر ويهمله .

ولو فتشنا فى أحكامهم على الأمور كلها وتصورهم لكثير من القضايا العليا لوجدنا ما يخزى ويسىء .

وكثير من أصحاب هذه الضمائر يستحل محرَّمات شتَّى ، ولا يرى غضاضة من اقترافها . لأنه - وهو المقطوع عن السماء - لا يعترف بما فيها من قذر .

ولو افترضنا - جدلاً - أنَّ نواحيهم الإنسانية كلها بلغت القمة فكيف ننسب الكمال كله لشخص هانت عليه علاقته بربه فأخَّر حقوقه ، وتمرد على مظاهر العبودية المطالَب بها وغيره ؟ .

إنَّ ترجيح كفة هؤلاء ضلال كبير ، وعقد نسبة بين مضل يكذب ، وملحد يصدق هو ضرب من المقارنة المفتعلة لا يراد من إجرائها إلا توهين الدين وتقوية الإلحاد ... فلا شأن المصلى أن يكذب . ولا شأن الملحد أن يستقيم ، نعم ... لا الصدق من خصائص الإلحاد ، ولا الكذب من خصائص الدين .

وسوق المنطق بهذا الأسلوب كالقول بأنَّ هذا عاهر جرىء ، وهذا عفيف هيَّاب، أو هذا إنسان يبطىء فى سيره ، وتلك دابة تُسرع فى جريها . ما معنى هذه المقارنة ؟

إنَّ انعدام الموضع المشتَرك يجعل هذه المقارنة مغالطة ، فإنسان عليل وحيوان قوى مقارنة لا تنشيء حكماً بأن الدابة أفضل من الإنسان .

فتلك صفات عارضة ، أو أنَّ العهر أفضل من العفاف .

وعند ما نرى المتدين مفرطاً فى إستكمال شُعب الإيمان وخلائق الاستقامة فالطريق الوحيد لتصحيح نفسه أن نشرح له أُصول عقيدته ، وأهدافها وآثارها ، وأن نُلزمه ما التزم من تكاليفها .. وأن نقول له : « إتقِ النار التى أُعدَّت للكافرين » فلا تسر فى نهجهم ، ولا تلم بأعمالهم حتى لا تنتهى إلى مصيرهم .

وقد ثار أخيراً لغط حول الاستغناء بالفلسفة عن الدين - وهو فى بلادنا - الإسلام ...

وعندما يتمخض هذا اللغط عن النتيجة التى يرقبها المستعمرون ، فمعنى هذا أن تذوى شعائر الإسلام ، وينصرف المثقفون عن فرائضه ونوافله .

وقد قرأنا للأستاذ « العقاد » تفنيداً لهذه الوجهة ، ورداً على مثيرها الأستاذ محمود الشرقاوى . ننقله هنا :

وتلخص فكرة الأستاذ كما قال : « فى أنَّ العقيدة إذا فُهمت وآمن بها صاحبها على أنها شعائر تُؤدَى وصلوات تُقام وأوامر وزواجر تُطاع بدافع الرغبة

فى الجزاء أو الخوف ولم تُؤَدِّ بمن يعتقدها إلى الاستمساك بالفضيلة الذاتية فهى عند ذلك مسخ للعقيدة لا خير فيه ، وخير من صاحبها مَن يشك ويجحد ولكنه صاحب خُلُق يصونه وضمير يهديه » .

ونحن نترك للأستاذ الشرقاوى رأيه فى المفاضلة بين دين بلا خُلُق وخُلُق بلا دين ، ولكننا نحسب أنه لا يستخف بشأن الشعائر لذاتها ، لأنها ذات شأن واضح فى كل فريضة اجتماعية تُقام بين جمهرة من الناس .

إنَّ الغاية من نظام الجندية - مثلاً - أداء الواجب فى الدفاع عن البلاد ، ولكن ...

الشجاعة فى الدفاع لا تُعفى الجندى من الحركات العسكرية ولا من لوازم الكساء والغذاء ومواعيد العمل التى تدين بها الجيوش .

ولا تُجيز له شجاعته أن يخرق « النظام » المتبَّع فى الميدان أو فى غير الميدان ، ولو لم تكن ضرورة محتومة فى جميع الأوقات .

ولا خلاف على ذم الرياء فى العقيدة ، فإنه من أوائل المنكرات التى تُنبِّه إليها الأديان ، ولكن هذا لا يمنع أن تكون للعقيدة ظواهر وبواطن وشعائر معلَنة ونيَّات مطوية ، وإنما « الأعمال بالنيَّات » كلمة تجمع هذه المعانى كافة بغير حاجة إلى الجدل فى المفاضلة بين ظواهر الشعائر وبواطن الإيمان .. أ هـ .

وهذا كلام طيب جميل فى تفسير وجوب الصلاة والصيام وغيرهما من سائر العبادات .. وضرورة أداء هذه المناسك فى إخبات وتجرد للّه رب العالمين .

والحقيقة أنَّ الفروض اليومية والسنوية المنوطة بأعناق المؤمنين ليست أعمالاً تافهة ، أو حركات صمَّاء قليلة الجدوى .

إنها مدارج ارتقاء بعيد المدى لمن يُحسن معالجتها ، ويتجاوب مع حقائقها .

وهى - مع العوام السذج - حصانات من شرور وآثام ....

وربما رُزِقَ بعض الناس شيئاً من الصفاء فى معدنهم أو الاستقامة فى طريقتهم وهم مجوس ، أو عُبَّاد وثن ، أو مقدسو بقر .

فهل القليل من الجمال النفسى أو البدنى عند هؤلاء يطعن فى قيمة الكثير الذى فقدوه لتصح به أرواحهم وأفكارهم ؟

إنَّ العبادات ليست حاجة اللّه إلى الناس .

إنما هى حاجة الناس ليتصلوا بالحقائق العليا فى نظام له مقدماته ونهاياته ، ويستحيل أن يُعوَّض عن فقدها شيء ...

إنَّ هناك حالة واحدة يمكن فيها الاستغناء بالفلسفة عن الدين .. وهى أن يثبت للناس عن طريق اليقين الجازم أنَّ اللّه لا وجود له ، وأنَّ أوامره ونواهيه خرافة ، وأنَّ انتظار لقائه والتأهب لحسابه غرور ....

وفى هذه الحالة وحدها يكون الدين شيئاً لا معنى له ولا خير فيه .

ولكن إذا كان اليقين الجازم هو العكس ، وأنَّ اللّه هو الحق المبين ، وأنَّ الإلحاد مرض يعترى الإنسانية كما يعترى الرمد الأبصار ، فكيف يُتصور أنَ الدين نافلة وأنَّ هناك عوضاً عنه فيما يصنع الناس لأنفسهم من فلسفات ... ؟

ولو فرضا جدلاً أنَّ الدين تقلصت ظلاله عن الإنسانية فمَن الذى يقول : إنَّ فلسفة الواجب والضمير هى التى ستحل محله ؟

إنَّ الذى سيحل محله هو منطق اللّذة الحيوانية ، أو بتعبير أرقى : منطق المصلحة العامة .

وفى دائرة اللّذة العاجلة سترتوى الغرائز وتنتشى وتعربد .

وعندما يرتفع اسمها ويتحول من لّذة الفرد وحده إلى سعادة الجماعة جملة فلن تكون هذه السعادة - المزعومة - لأجناس كلهم الأبيض والأسود ، الغنى والفقير ،

العالم والمتخلّف ، كلا .. بل ستكون هذه السعادة حكراً لأحد الأجناس الغالبة تُفسِّر لمصلحته فحسب ، ويستوحى من دلالتها ما يُشبع الأثرة والكبرياء .. !

إنَّ فلسفة الواجب والضمير إنما تنتعش وتجد لها أنصاراً فى حماية المعانى الدينية ونضحها الواسع على الأفكار والمشاعر .

ولستُ أدرى لحساب مَن يخاطب الخاصة والعامة بأنَّ الدين يجوز إهمال شأنه وإرخاص تكاليفه ؟

إنَّ الدين فى أوروبا وأمريكا قشور لا تنفذ إلى القلوب الذكية .

وإذا استمسك بها أفراد ، أو تراءت بها دول ففى أسلوب لا يرضى عنه رب العالمين .

فهل طُبِعَ هذا الكلام فى مصر كى تنتفع به هذه الدول ؟

والدين فى بلادنا - وهو الإسلام - يعانى حرباً ضروساً من الجاهلين به ، والكائدين له من أُمته المفرِّطة ، وأعدائه الحاقدين الطامعين .

فلمَن يُوجَه الخطاب بأنَّ الفلسفة تغنى عن الدين ، ويقظة الضمير تغنى عن تقوى الله ورعاية وجهه الكريم ؟

الحق يقال : إنَّ هذا الكلام - وعاه مرسلوه أم لم يعوه - جزء من الحملة المدبرة ضد الإسلام ، كى يزداد الشباب الحائر حيرة ، وكى تظل الجيال المضلّلة عن إيمانها موغلة فى إضاعة الصلاة واتباع الشهوات .

* * *